

الأستاذة شيكو يمينة
المدرسة العليا للأساتذة في الآداب
والعلوم الإنسانية - بوزريعة الجزائر

رفاعة الطهطاوي ودوره في الترجمة لترقية تدريس اللغة العربية

بادئ ذي بدء يمكن التساؤل عن سبب الاهتمام بالطهطاوي في هذا المقام،
لماذا رفاعة الطهطاوي بالتحديد؟

لقد كان من رواد النهضة العربية والإسلامية، فبالرجوع إلى فترة حياته
(1801-1873)، والنظر إلى المعارف السائدة آنذاك ومناهج التعليم والكتابات
وما كان يميزها من ضعف وتخلف، وما قام به رفاعة الطهطاوي من الجهود،
فإنه يعد حقا مجددا سواء في المنهج أو في التأليف.

فهو من أهم أعلام الحياة الثقافية في بداية النهضة العربية الحديثة، ولد في
طهطا في مصر، بدأ تعليمه المبكر بحفظ القرآن، ثم التحق بالأزهر بعد أن نال
قدرا من المعرفة، فتتلمذ على يد أفضل من عرفه الأزهر آنذاك، غير أن فكر
هؤلاء ومعارفهم تعكس طبيعة هذه الفترة الراكدة من تاريخ مصر الفكري

والعلمي، فأكثر الكتب التي قرأها الطهطاوي كانت متونا وشرحا ألفها مؤلفون متأخرون استعاضوا عن الأصالة وأعمال الفكر، بصقل المتون الغامضة وتدوين الملتوية، واستعاضوا عن الابتكار والتجديد بالغموض وتعقيد العبارة.

لقد قرأ الطهطاوي متونا وشرحا كثيرة منها (جمع الجوامع في أصول الفقه) و(مشارك الأنوار في الحديث) و(شرح الأشموني على ألفية ابن مالك) و(شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك) و(تفسير الجلالين) للسيوطي والمحلى.

ولعل أكثر الكتب التي قرأها الطهطاوي أصالة وابتكارا هو كتاب (مغني اللبيب في النحو لابن هشام).

أما أكثر الكتب التي أتاحت للطهطاوي آنذاك فكانت متونا وشرحا لمؤلفين متأخرين، ولكن هذه الكتب لا تعبر عن التراث العربي إلا في صورة باهتة شاحبة ولا تقدم منه إلا قدرا من النحو وقدرا من التفسير وقدرا من الفقه والحديث وكأن العرب لم يشغلوا أنفسهم إلا بهذه العلوم التي عبروا عنها آنذاك بمصطلحي (المعقول) و(المنقول).

لم يكن علماء الأزهر آنذاك علماء بالمعنى الحديث للكلمة، وتتضح لنا صورة الحياة العلمية في الأزهر من خلال الكتب التي كانت محور التدريس منها، (الجزرية)، (جمع الجوامع في الأصول)، (قطر الندى وبل الندى)، (متن الأزهرية في النحو)، (متن شذور الذهب وشرحه) وكتب الحديث والسنة.

لقد كانت هذه الكتب محور التدريس وكان العالم هو الحافظ لمثل هذه المتون العارف بشرح من شروحها، فإن أراد هذا العالم أن يكون مؤلفا وضع الحواشي والتقاريرات على الشروح والمتون أو نظم المتن في

منظومة تعليمية، وكان الأزهر مشغولا بمثل هذه المتون والشروح والحواشي والمنظومات.

وهكذا عرف الطهطاوي الأزهر بمتونه التي لا تكاد تفهم يوضحها المدرسون مستعينين بشروح وتعليقات تتسم بكل ما عرفته هذه المرحلة من تعقيد في الشكل وجمود في المضمون، ومع كل هذا التخلّف فقد كان هؤلاء هم "العلماء" ولم يكن في العالم الإسلامي كله مركز علمي أفضل من الأزهر.

إن المعلم الوحيد الذي أثر في الطهطاوي أثرا بعيدا ومهد له طريق الانفتاح على الثقافة الأوروبية هو الشيخ حسن العطار، فقد كان هذا الأخير بتقديره للأصالة ومطالبته بالانفتاح الثقافي، وراء الكثير من حركات التجديد في الثقافة العربية، لقد تجاوز العطار دائرة الفقه والنحو وألف في الفلك واهتم بالأدب يوجه تلاميذه إليه.

وقد كان الطهطاوي يلتقي بأستاذه في غير أوقات التدريس ليأخذ عنه علوما أخرى لم تكن تدخل آنذاك في إطار الثقافة الرسمية وهي التاريخ والجغرافيا والأدب.

وقد بدأ الطهطاوي عمله مدرسا بالأزهر يعمل داخل الإطار التقليدي، إلا أنه كان محل إعجاب الكثيرين لحسن أسلوبه وسهولة تعبيره وقدرته على الإفهام.

وظل الطهطاوي مدرسا تقليديا إلى أن عين واعظا في الجيش المصري في عصر (محمد علي). في هذه الفترة كانت مصر تمر بتحول كبير، إذ كانت أوروبا الناهضة ماثلة أمام عيني محمد علي، فبدأ يخطط لمستقبل البلاد، وبدأ تحول البعثات إلى فرنسا سنة 1825، وعين الطهطاوي واعظا وإماما لها مشرفا على أعضاء البعثة صيانة لسلوكهم.

وهنا بدأ التحول الكبير في حياة الطهطاوي حين سافر إلى فرنسا، إذ لم يقتصر على مهام وظيفته، بل كان متفتح الذهن لمعرفة الحياة الفرنسية، فبدأ يتعلم اللغة واهتم بالاطلاع على الكتب الفرنسية والترجمة.

فكان لاهتمام الطهطاوي بمنهج الفرنسيين في تأليف كتب النحو أثراً مباشراً في كتابة "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية"، ففي هذا الكتاب نجد النحو العربي كله في عرض سهل واضح مزود بجداول إيضاحية لم يعرف المؤلفون في عصر الطهطاوي شيئاً منها، وتوضح لنا مقارنة كتب شيوخ الطهطاوي ومعاصريه في النحو بهذا الكتاب، أن الطهطاوي رائد التجديد في تأليف كتب النحو العربي الحديثة.

واهتم الطهطاوي اهتماماً كبيراً بعلم التاريخ وكان يشير إليه باعتباره علماً مثل علم الحساب وعلم الهندسة وعلم الجغرافيا، غير أنه كان يذكر الترجمة باعتبارها فناً، وقام بترجمة قاموس في الجغرافيا إلى العربية.

وتناولت مطالعات الطهطاوي ودراساته كتباً كثيرة في الفكر الأوروبي والأدب الأوروبية أثناء البعثة، فقرأ كثيراً في المنطق والفلسفة والفكر السياسي والأدب. فذكر تلك الكتب تحت عنوان متواضع، "كتب في فنون مختلفة".

كما اطلع على عدد من الكتب في القانون والفكر السياسي، وكان لاهتمامه بهذه الموضوعات أثر مستمر في مؤلفاته "تخليص الأبريز" و"مناهج الألباب" ومدونتين قانونيتين من الفرنسية إلى العربية.

وعاد الطهطاوي إلى مصر ومعه معارف واسعة إلى جانب وعي علمي جديد وثورة فكرية كامنة وبأمل أن تعود مصر المسلمة إلى مجد يضارع ما كان لها في التاريخ القديم.

وطريق التقدم هو الإفادة من العلم والنظم السياسية والاجتماعية الحديثة في إطار الدولة الإسلامية، وقد أوضح هذا في كتابه (تخليص الإبريز) في تلخيص باريز و(الديوان النفيس بإيوان باريز).

وقد كان صاحب أهم فكرة وهي فكرة إنشاء (مدرسة الألسن) التي تكونت بالقاهرة فكان مديرها، كما كان مشرفا على مراجعة وتصحيح الكتب التي يعربها تلاميذه وكان يلقي على طلبته دروسا في الأدب والشرائع الإسلامية والغربية، وقد كان مشرفا على تحرير "الوقائع الرسمية" وأصبحت أصول الجريدة باللغة العربية بعد أن كانت باللغة التركية.

وما يمكن أن نخلص إليه هو أن الحداثة في المنهج يرجع الفضل فيها إلى أمثال رفاعة الطهطاوي في التفكير فيها وإنشائها والاستمرار فيها وتحسينها يحتاج إلى وعي وروح يشبهان روح الطهطاوي ووعيه، لأنه لم يكن يهدف فقط إلى ترجمة النصوص والتعريف بها، بل كان يطمح إلى ترقية المجتمع بمحاولة التفكير في إعادة النظر في معارفه ومؤلفاته وطريقة كتابتها وكيفية تقديمها للقراء، بكيفية واضحة مقربة للأذهان بعيدة عن الغموض والتصنع.

فالترجمة كانت في نظره فنا هادفا، لن ترقى إلى ذلك المستوى إلا باتخاذ التدابير اللازمة لها، من إنشاء مؤسسات إعداد برامج ومؤلفات ومكونين، وقد كان سباقا في ذلك، بدليل تفكيره في إنشاء مدرسة الألسن التي كان مديرا لها إلى جانب أنه كان مترجما وكاتبا ومدرسا.

وهذه نبذة تاريخية أردت التلميح لأهميتها تاريخيا ومعرفيا، ويمكن الاستفادة منها كتجربة في تاريخ الترجمة ودورها في ترقية تدريس اللغة العربية.

المراجع:

- 1- الفكر العربي المعاصر في عصر النهضة. تأليف: ألبرت حوراني.
- 2- الأعمال الكاملة للطهطاوي. تأليف: محمد عمارة.
- 3- عجائب الآثار ومقدمة كتاب تاريخ التعليم في عصر محمد علي. تأليف: أحمد عزت عبد الكريم.